بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

أقدم هذا الكتاب للطبع ومن حولي أحوال وأهوال تفوح منها أرواح مفزعة تَتَبَيَّنَها حتى لتكاد تَسْتَيْقِنها فترتاع . وتحاول أن تخدع النفس فتصرفها بكواذب العلل .

وقد كنتُ أشير في مقدمات كتبي إلى شيء من الاختلال الذي أقام حياتنا العلمية على مقتبسات غير منظَّمة ، وغير متلائمة ، ثم الإصرار على أن تكون هذه الأخلاط المبتسرة والغامضة بديلاً لفكر حيٍّ منظَّم متكامل ومتشارب ، وتلاحقت أجيال العلماء على تصفيته ، وصقله ، وبسطه ، وإزهاره ، كما هو الحال في الأمم كلها ، وفي التاريخ كله قبل أن يأتي هذا الزمن الغامض بعقول ضعيفة مُسْتَرِكَّة تُتْقِنُ التمثيل أكثر مما تُـتْقِنُ المعرفة ، وكل ما في جُعبتها مقتبسات مبهمة استُلَّتْ من هنا ومن هناك ، ثم تراها مُصرّة على أن تضرب بهذه المبهمات أصولاً من حقائق اللُّغة والفقه والتفسير والحديث والعقائد ، وإنك لتكاد الأرض تدور بك وأنت تقرأ قدح هؤلاء في علومنا وعقولنا وتاريخنا إذا كان في يدك كتاب من كتب الفقه تنظر فيه وترى كيف يُعلَّم الناس كيف يفكرون ، وكيف يستنبطون ، بل وكيف يقدح المرء نور بصيرته . وهو يتابع أضواء الحقيقة في مجاذباتها الحيَّة الرائعة النبيلة في حوار الفقهاء ، وأنت قاطع أن هذا المغرور المسكين لا يستطيع أن يفهم صفحة واحدة من كتاب من كتب متأخري الفقهاء فضلاً عن أئمتهم .

كنتُ دائمًا أُشير في مقدمات كتبي إلى مثل هذا ..

وكنتُ على يقين من حقيقة علَّمها التاريخ لكل من يقرؤه ، وهي أن هناك رابطة وثيقة بين الحياتين السياسية والفكرية ، وأنه إذا وثب فريق على الساحة السياسية ، واستولى عليها بالحق أو بالباطل ، فلا بد أن تنشق الساحة الفكرية عن أشباههم ونظرائهم في عالم الفكر ، وأنه يستحيل أن تكون الساحة السياسية في يد عصابة من اللصوص وقُطاع الطُرق والمرتشين والعُملاء ، ثم تبقى الساحة الفكرية في يد المفكرين الشرفاء ، ولابد أن يتوارى هؤلاء المفكرون الشرفاء وبأي وسيلة ، ولو بتلفيق التُّهم ليتواثب اللصوص وقُطَّاع الطُرق من المنتسبين إلى الحياة الفكرية فيتلاءم الإيقاع بين رجال السياسة ورجال الفِكر ، ولهذا ترى رجالاً في ساحة الأقلام يبرزون فجأة ويشغلون مساحات متسعة من الحياة الفكرية لقوة ارتباطهم برجال يشغلون مساحات متسعة من الحياة السياسية ، ثم ما تلبث الأحداث أن تُمزِّق الأقنعة فترى وجوهًا شائهة بغيضة وترى شعبًا مسكينًا حمل على أعناقه أبناءه الألداء ، والآن تأتي المرحلة الثانية التي تتحرك فيها الجبهة المعادية للأمة حركة محسوبة بدقة وترتدي أقنعة مُتقنة ، وهذه المرحلة تقترب من الهدف اقترابًا قريبًا ، وذلك فيما تراه من كتابات حول الشريعة وأحكام الله ، ترى فيها عالمًا متسعًا من التضليل والخداع والفجور الذي لا يستحي ولا يمل من تكرار التفكير الحضاري والفهم المستنير لدين الله ، وتَخْليص هذه الشريعة من عقول المشايخ المتشبثة بالعصور الوسطى ... إلى آخر ما في هذه الحملة الجديدة المتجهة إلى إفساد الشريعة ، وإبطال نصوصها ، والقدح في فقه فقهائها ، والقول بأن ذلك كله مرتبط بأحداث ، وأسباب ، فلا يجوز أن يُنتقل إلى أحداث وأسباب أخرى ، حتى نصوص الكتاب والسُّنَّة ، وأن الربا المحرَّم هو ما واجهه القرآن من رِبا الجاهلية فقط ، وأنه ليس في نُظمنا صور منه ، وأن الشيوخ حين يزعمون ذلك إنما أضلهم جمود عقولهم ، وامتلاء عيبتهم من ثقافة العصور الوسطى ، وأن دخول الإسلام ميدان السياسة انتقاص لقدره ، وأنه

إنما نزل للمحاريب ، والتهجد ، والناس نيام ، وهذا غاية المراد منه وأن الخلافة التي هي مظهر دخول الإسلام ساحة السياسة ، كانت وَيْلاً وبلاءً ، وقامت على الاستبداد البشع ، وصاغت مسيرة تاريخية دموية ، تتناثر فيها أشلاء الذين قهرهم الخلفاء ، وتجري فيها دماؤهم ، وأن مسيرة الفِقه الإسلامي إنما كانت حركة فِقهية ضبطت إيقاعها مع حركة الدكتاتورية الحاكمة ، وتناغمت معها ، ولهذا وجب بتره ، وطرحه ... إلى آخر ما يُقال مما يستحي اليهود أن يكتبوه بأيديهم عن الفِكر الإسلامي وتاريخ المسلمين ، وذلك لشدة فسوقه ، وفجوره ، وخروجه عن ضوابط العقل ، ثم تعجب من بكاء هؤلاء المفكرين المستنيرين على حرية الإنسان التي وطئتها أقدام الخلافة الخشنة ، ثم اغتباطهم بما يجري حولهم من تخريب ، وتدمير ، وجهل كثيف داكن ، والخوف على هذه المسيرة (مسيرة اللصوص) المتحضرة من أخطبوط الشريعة الإسلامية ، وجاهلية القرون الوسطى ، ثم إنه من الواجب أن يدافعوا عن حضارة مصر الراهنة (حضارة الكدح الخشن من أجل رغيف الخبز) وأن يدافعوا عن حرية الإنسان المصري (الذي لم يعد لبيته ولا لعِرضه حُرمة ، والذي تُنتَهك محارمه تحت سمعه وبصره) وأن يدافعوا عن النظام السياسي الذي شعاره الطهارة ، والمنهمك في تأمين مستقبل أحفاد الأحفاد ، بعد ما فرغ ممَّن قبلهم ، والذي سيتفرغ بعد ذلك لمصلحة البلاد ، كما كتب الأستاذ محمد جلال كشك ، أقول : إن هؤلاء الكُتَّاب الذين يَقْدحُونَ في الخلافة ، والفقه والشريعة ، يدافعون عن كل هذا ، ويخافون عليه من خطر الهجمة البربرية ، التي جاءت تُبَشِّر بالعودة إلى شرع الله .

هذا شيء مما يجري الآن على الساحة ، وهو ظاهر ظهورًا لا يجهله ولا ينكره إلا مَن لا يرى ولا يسمع .

قلتُ : إن التاريخ حدَّث وقال إنه من المستحيل أن يكون أمر الفكر في يد رجال نُبلاء ، إذا كان أمر السياسة في يد غيرهم ، وقلتُ : إن الذي لا يرى

التشابه في المنزع والحركة والهدف بين العصابات المسيطرة على السياسة ، والعصابات المسيطرة على الفِكر ، لا يستحق أن يُخاطب ، بل ولا يستحق أن يحيا إلا حياة عمياء ، خرساء ، كحياة العبيد الذين ينكرهم هذا العصر .

ومن الظاهرأن الذين في أيديهم أمر الناس مغتبطون بهذه الأباطيل التي تُقال عن الشريعة ، والفقه ، والخلافة ، والإسلام ، والسياسة ، لأنهم هم أيضًا منغمسون في مستنقع أبشع ، ولأنهم يعتقدون بغفلة ، وفساد رأي ، وغباء ثقيل ، أن هذا يواجه مطلب الأمة بالعودة إلى ذاتها ، وتاريخها الحي ، وعقيدتها الراشدة ، وشريعتها الراجحة ، وهذا الطلب مُجمَع عليه من أهل القِبلة، لا يشذ عنهم فيه إلا مَن خرج منهم ، وإن كان هذا المطلب النبيل لم يسلم هو الآخر بل كدّرته فلول عصابات نسبت نفسها إلى الإسلام ، وجعلت هذا المطلب الشريف مُنتَجعًا تتساقط حوله الطيور الشاردة .

هذه «الفِرقة» الجديدة التي تهاجم الشريعة هي من معدن «الفرقة» القديمة التي تهاجم علومنا وتشكك في عقليتنا ، والفرقة الأولى مهدّت للتشكيك في العقلية الإسلامية التي أبدعت المعرفة ومنها الفِقه وعلوم الشريعة ، فجاءت (العصابة الثانية) لتضرب في هذه العلوم المتاخمةَ للكتاب والسُّنَّة .

وكِلا الفريقين متفق في الجهل بالمعرفة التي يهاجمها ، فالعصابة الأولى التي هاجمت علومنا لا تعلم منها إلا علمًا كحسو الطير الخائف المرتاب ، والذين يهاجمون الفِقه والفقهاء والعلوم الملتصقة بالكتاب والسُّنَّة ، ليس لديهم من أدوات الاجتهاد إلا ما يعينهم على تحليل «الأغاني» وضروب الرقص ، واعتقدوا أن البصيرة القادرة على نقد الأغاني والرقص و«الأوبرا» قادرة على نقد الفِقه ، ولا تظن أني أهزل لأني أتابع ما يجرى حولي بعين معقودة على حركة هؤلاء ، وقد قرأتُ لبعض الكُتَّاب نقودًا لفنون الأوبرا أدخل في نقده كلامًا في الحلال والحرام ، وذكر أن الذين يُحَرِّمون كشف السوأة في هذه الفنون قوم يجهلون لأن لها بابًا من أبواب النقد لا يدخل فيه فقههم .

كما قرأتُ لمفكر انتهازي ـ يحب أن يصف نفسه بأنه يساري تقدمي ـ نقدًا لفِقه مالك والشافعي ، ثم قرأتُ له بعد حين إطراءً يناغي فيه عواطف بعض المغنيات والممثلات في نقده لمسلسلة تليفزيونية ، وهذا واقع ويجب أن يُسَجَّل ، ويكتبه العلماء في صدور كتبهم لتعرف الأجيال الناشئة حقائق ما يجري .

والمفزع أن هذا الهزل المستنير ، يجري ونحن أحوج ما نكون إلى الجد ، وعلى بوابتنا الشرقية حيَّة من أخبث الحيَّات ، وذِئب من أخس الذِّئاب ، يرقب اللَّحظة المناسبة ثم يهاجم ، وقد سبقت هجمته السابقة إعداد من نظام غبيٍّ جاهل ، قتل النفوس الحُرَّة في سراديب طغيانه ، فلما طرق العدو باب البلاد وجد رجالها الأحرار قد غُيِّبوا ، وليس على ساحتها إلا العاكفون على (الجوزة والحشيشة) وأخبار الممثلات ، فدخلت شرذمة القردة البلاد وأهلها مقيدون ، وأحرارها يُعَذَّبون ، وليس على الباب حُماة ، وإنما كان أمرها في يد اللصوص والزُّناة . وقد عاد الحال الآن ، والصامتون صامتون ، والرَّكْب يسير والحادي الجاهل يحدو ، والكل رعية ، وكان فرعون طاغية على شعبه ولكنه كان أيضًا طاغية على أعداء شعبه ، أما هامانات هذا الزمن المهزوم فإنهم طواغيت على شعوبهم فحسب ، والآن وجب على الصامتين أن يقوموا وأن ينهضوا وأن يستخلصوا حق الحياة ، وأن يذكروا كلمة أولهم : « إنهم لا يبدون أمامكم أقوياء إلا لأنكم ضعفاء ، ولا يبدون أمامكم سادة إلا لأنكم عبيد» .

قلتُ : إن العلم والتعليم والفكر والسياسة والمدرسة والجامعة ، والثقافة أمور لا يجوز فصل بعضها عن بعض ، لأنها تمثل بِنية واحدة وهي بِنية المجتمع الذي نعيش فيه ويعيش فينا ، ونقوى بقوته ونضعف بضعفه ، ونسعد بسعادته ونشقى بشقاوته ، ونعز بعزه ونذل بذله ، هو كياننا ونحن كيانه ، وأن المشتغلين بالعلم يعلمون علم اليقين أن العلم لا يُقصد لذاته ، وإن كان أشرف ما تُشغل به نفس شريفة ، وأنبل ما تعكف عليه القلوب النبيلة ، وإنما هو

مقصود من أجل الإنسان الذي يدور كل هذا الكون له وحوله وبه ، والذي كرَّمه الله وفضَّله حتى على الملائكة وجعل سبحانه خلافته فيه ، وقال لملائكته : اسجدوا لآدم ، فسجدوا ، ولم يأمر آدم بالسجود إلا له سبحانه ، وجعل في ذُرِّيته النبوَّات وسَخَّرَ له اللَّيل والنهار والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرات ، وقال من فوق سبع سموات : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ** ﴾ (الإسراء:٧٠) .. لا كان العلم إذن ولا كان أهله إذا أغمض العلماء عيونهم عما حولهم وتركوا الإنسان تضربه مقامع الذل بيد أهل الجهالة والغشم ، وهم عاكفون في صوامعهم يتنطسون ويتبتلون . لا .. ليست هذه سير العلماء وإنما هم تلك الشُّعلة المضيئة ، والجذوة المتقدة التي تعيش في أعماق الأُمة ، وفي قلبها النابض ، كما تعيش الأمة في أعماقهم وفي نبض قلوبهم ، نعم .. إنهم ليسوا من أهل التهريج السياسي ولا الهيجان الجماهيري ، وإنما هم أهل علم وحكمة ، ولهم بوادر يخشاها كبار رجال الدولة لأن أي نظام يفتقد تأييد العلماء لابد له أن يهتز .

واقرأ سير العلماء تجد رجالاً أحرارًا حُماة أُباة ، لا يقيمون على ضَيم يُراد بهم ، وقد قال الأول :

ولا يُقيمُ على ضيم يُرادُ به إلا الأذلان : عَيرُ الحيِّ والوَتِدُ

والعَيْر هو الحمار ، وإنما أقام العَيْر على الضيم لأنه بليد وليس حرًّا حسَّاسًا ، وليس كذلك الإنسان ، والعلماء هم صفو الإنسان لأنهم الطبقة التي تلي الأنبياء ، وهم ورثتهم ، والأنبياء عليهم السلام هم الرُّسل الكرام الذين جاءوا يدقون أبواب الحرية بيد مشرقة بيضاء ، أقول : إن علماءنا كانوا بمثابة خط الدفاع الأول عن حرية الشعوب ، وسيرهم مشحونة بهذا ، ولكنهم يُذكرون في طبقات الفقهاء أو اللُّغويين أو المتكلمين ، ونقرأ سيرهم لنتعرف على مشاركاتهم في العلوم ، وتمر بنا مشاركاتهم في السياسة والحياة العملية فلا نلتفت إلى هذا لأننا مشغولون برأيهم في المسألة الفلانية ، والعقل العلمي

بطبيعته عقل حيّ لأن شغله بالفكر والفِقه والعلوم لا يكون إلا لفضل حياة وحيوية ، وما دام شأنه كذلك فلا مندوحه له من الاشتغال بالواقع العملي في حياة المجتمع الذي يعيش فيه ، وبه ، ويفكر له ، وبه ، ويكتب له ويكتب به ، وإذا لم تكن علاقة العلماء بالواقع هي هذه العلاقة الحميمة فلا قيمة لعلمهم ، ولم أعرف كتابًا ذا قيمة كتبه عالِم معتبر إلا وفيه صورة حيَّة للزمن الذي كُتِبَ فيه ، ترى بجانب المعرفة التي بُنِيّ عليها صورة واضحة لخريطة الحياة بكل تضاريسها ، ترى المرتفعات ، والمنخفضات ، والسهول ، والوديان .. وهذا من أهم مزايا المؤلَّفات العظيمة ، لأنها كُتِبَت للحياة فَعَظُمَ قدرها بين الأحياء ، وليس هناك عالِم معتبر أدار ظهره إلى الزمن الذي عاش فيه ، لأن مَن أدار ظهره إلى زمانه بمثابة مَن أدار ظهره إلى الحقيقة ، لأن الحياة هي الحقيقة ، والمعرفة جزء منها،ولا ترى في كتابه من المعرفة إلا ما هو منها بمنزلة القفا، لأن الوجه المشرق الحي للمعرفة يكون قد إزوَّر عنه ، لأن الوجه المشرق للمعرفة متجه دائمًا إلى الحياة ، لا ينصرف عنها ، لأنه ينفحها كما تنفحه ، ويُشرق بها كما تُشرق به ، ليس العلم هو السطور التي كُتِبَت على أكفان التاريخ ، وإنما العلم هو الذي يُكتَب بنبض الحياة ، ولا تظننَّ أني حين أقول إنه لا بديل للعالِم من أن يعيش زمنه ، أني أعني المعنى الشائع لهذه الكلمة ، وأني أغري بإرسال الدلاء في ثقافة الزمن المكذوب الذي نعيشه ، مما يسميه خدمة فكر الآخرين « فكرًا عالميًّا » ، لأن هؤلاء المفتونين بهذا لا يزيدون في ميزان الحق عن العبيد الذين يسرقون أثمال سادتهم ، ثم يختالون بها فينبهر بهم عبيد عجزوا عن هذه السرقة ، أو هم في طور الإعداد لهذا الدور الذي صار متوارثًا من أيام أن بدأه رجال سمَّاهم الصغار كبارًا .

وصريح العقل يرفض أمرين :

الأول : أن تقوم الحياة الفِكرية على نقل الأفكار التي جهد في إبداعها الآخرون ، لأن ذلك عجز ، والعجز مَطِّية الذل ، والذل موت خسيس أهون منه

موت مَن مات فاستراح ، وأنا أكره الذل والعجز ، وأحب القوَّة والعزة من رأسي إلى قدمي .

الثاني : أن تقف عقولنا عند ترديد ما قاله علماؤنا ، أن نقول في كل مسألة ما قالوه ، وأن نتحرك في إطار صيغهم ، ونكتفي بدور الحفظ ... وكان الله يحب المحسنين .

لأن هذا إبطال للحياة ، لأنه لا معنى لحياة لم تتجدد يومًا يومًا ، وأعني بالتجدد أن يُعمل الأحياء عقولهم في كل يوم لكل يوم ، أعني أن يستقبلوا كل يوم باجتهاد جديد ، وعمل عقلي جديد ، كما تتجدد الأنفاس ، وكما تتجدد الرياح والسحاب والشمس ، وكل شيء في الحياة ، وهكذا كان علماؤنا في كل جيل ، يستوي مَن كتب في الفِقه واللُّغة والفلسفة والتاريخ ، حتى شُرَّاح الملخصات . ولو تأملت خط سير أي علم وجدتَ شيئًا ظاهرًا هو أن كل جيل كان يصوغ المعرفة صيغًا جديدة ، تلائم العصر الذي عاش فيه ، وتجديد صيغ المعرفة أمر مهم عند كل ذي لُبّ ، وفي كل عصر ، وعند كل أمة ، تأمل كتب نُحاة القرن الخامس ، أو السادس ، وقارنها بكتب نحاة القرن الثالث ، أو الرابع ، تجد الأصول الأساسية توشك أن تكون ثابتة ، لأنها كذلك في اللُّغة ، ومع هذا فلكل عصر صِياغة عقلية تلائمه ، وقُلْ مثل ذلك في الفِقه ، ولستُ في حاجة إلى أن أنَبِّه إلى أن المراد بالصياغة ليس صياغة العبارة ، وإنما هي الصياغة العقلية الجديدة للمعرفة ، وهو أمر قصَّرنا فيه ، لأننا لم نُقَدِّم المعرفة العربية والإسلامية في صِيغ جديدة ، تلائم العصر الذي نحن فيه ، كما فعل أجيالنا من العلماء جيلاً بعد جيل ، وإنما قدَّمنا علومنا بصيغها التي توَّقفت عندها ، فلم تلتئم مع مذاق العصر ، فهرب منها أبناؤنا إما إلى الجهل ، أو إلى معارف الآخرين .

وهذا الفكر الغربي المعاصر الذي ننقله ، ونحن وَلِعُون به ، هو فكر قديم في جذوره ، وخمائره ، ولكن عقول الجادِّين من وَرثته عكفت عليه عُكوفًا

منظَّمًا ، فاستخرجت منه صورًا جديدة ، وأفكارًا جديدة ، والفكر لا يُولَد في خرائب الأفئدة ، وإنما تُولد الفِكرة من رحم فِكرة ، والفرق بين الحياة الفِكرية الحيَّة المتجددة ، والحياة الفكرية المتبلدة العقيم ، هو فرق في الأحياء ؛ فالأولى قام عليها رجال استخرجوا من عناصرها الملهمة فِكرًا آخر ، واقتحموا أسوار المجهول ، وطرقوا أبكار الأفكار ، وأخطأوا ثم أخطأوا ثم أصابوا ، والثانية قام عليها رجال يتلونها حق تِلاوتها ، ولكنهم لا يتحسسون وحْيَها ، ولا يستلهمون رموزها ، ومثل هؤلاء لا يخطئون ، لأنهم لا يصيبون ، لأن الصواب هو اقتناص الفكرة الشاردة ، أو صيد الخاطر ، كما كان يقول علماؤنا ، وليس هو حفظ المعلوم ، نعم حفظ المعلوم هو واجب التلاميذ المبتدئين ، وليس مهمة الشيوخ الأساتيذ .

والذي نجده على الساحة الآن ضربان أو تيَّاران :

تيار النَقَلة والتَراجِمَة ، والذين يستلُّون ما في رءوس الآخرين ، وينادون عليها في خرائب فجاج الفكر ، ونسميهم مبدعين ، ومفكرين ومجدِّدين ، وهم مغتبطون بذلك والكل مكتفٍ به .

والتيَّار الثاني تيَّار الحَفَظَة ، الحَمَلة ، الذين ينطقون بسطور الكتب ، من غير أن ينفحوها بنفحات الإلهام ، فيعيدوا تشكيلها ، وتصويرها ، ويخلقوها خلقًا بعد خلق ، كما فعل أبو الفتح حين نطق بسطور العلماء ، ونفحها من فيض عقله فاستحالت عِلْمًا جديدًا ، وكذلك فعل شيخه أبو علي ، وهكذا كانت طبقات الفقهاء والمُحَدِّثين وغيرهم من ذوي المؤلَّفات المتميِّزة ، وإن كان خيوطها مستلة من إرث السابقين ، وهذا ما يجب أن نعود إليه ونطرح هاتين العقليتين طرحًا واحدًا وفي قبر واحد ، لأنهما وإن اختلفا في المظهر اختلافًا كبيرًا ، هما في الحقيقة شيء واحد ، هذا يكرر ما عندنا ، وذاك يكرر ما عند غيرنا ، فهما سواء في الحفظ ، والحَمْل ، وليس لأحد شيء فيما يقول ، وليس في باب العجز طبقة دون ذلك ، وحسب المرء عجزًا أن يتحرك في فمه لسان

غيره ، وأن تدور رأسه بعقل غيره ، لقد تعوَّدنا على أن نستوعب علم العلماء من غير أن نُشغل أنفسنا بمعرفة خطواتهم التي قطعوها في إبداع ما أبدعوا ، واستخراج ما استخرجوا ، وكان ذلك نقصًا ظاهرًا في إعدادنا ، ويجب أن نتدارك ذلك في إعداد أجيالنا ، يجب أن ينظر الدارس من جهتين : جهة يستوعب منها المعرفة ، وجهة يعرف منها كيف نشأت المعرفة ، وفي أي جهة تحرَّك العقل الذي أبدعها حتى أبدعها ، وهذا عند الباحث المتذوِّق أرفع مذاقًا من المعرفة نفسها ، نعم إنه لأجَلُّ من الحقيقة أن تعرف كيف استخرج العقل الفَذّ هذه الحقيقة ، كما أن معرفة صنع الثوب ، أكثر قيمة من الثوب نفسه .

يجب أن نكره الواقع الرديء حتى نحتشد للخلاص منه ، يجب أن نكره بقاء جماجمنا كالكهوف الخربة لا تُسمع فيها إلا غمغمات الآخرين ، لأن هذا قبح أقبح من القبح ، وعلم أخس من الجهل ، لأنه علم العَجَزَة ، وليس في الدونية منزلة أسفل من العجز ، وكان ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذُ بِكَ من العجز » ، وعجز الأعضاء أقل ضروب العَجْزِ خِسَّةً ، وأشقُّها عجز العقول والبصائر .

قلت : الخطوة الأولى أن نخجل من فراغ رءوسنا من أفكار تُنسب إلى هذه الرءوس ، وأن يرجع كل منا إلى نفسه سائلاً ما هو الشيء الذي يُحسب لي في كل ما يدور في رأسي ويتحرك به قلمي ، ويُسوِّد به سطوره ، ويحاضِر به طُلابه ؟ ما هي المعاني التي فُرِقَ له عنها ، والحقائق التي كَشَفَ عن حُرِّ وجهها ، واستخرجها من مضابئها ، كما كان يقول الشيوخ ، فإذا لم يجد له من ذلك شيئًا فليبدأ بطلب العلم من جديد ، وبطريقة تهديه إلى هذا الطريق ، ولا يحجزه عن ذلك أنه شاب قرناه ، وليرجع إلى تلاميذ الشيوخ الأوائل ، ويقارن تراث التلاميذ بتراث الشيوخ ، وليتعرف على الشيء الذي صار به التلاميذ متميِّزين ، وصار لهم علم يُنسب إليهم ، وتراث يُعقد بنواصيهم ، وتُعْصَبُ به عمائمهم ، ليفعل ذلك في تُراث العربية إن استطاع ، أو تُراث

الآخرين إن شاء ، لأن النابهين في الأمم كلها ضرب واحد ، وبعضهم أشبه ببعض ، بل وبعضهم من بعض ، ونفحاتهم واحدة ، ومواهبهم واحدة ، وكلام الأفذاذ يتقارب ، وخواطرهم تتناغى ، كما أن العَجَزَة في الأمم كلها طابور واحد .

وحاجاتنا إلى الفِكر المُبْدِع ليست فقط من أجل تجديد علوم اللُّغة والأدب ، وإنما نحن في حاجة إلى هذا في كل فروع الحياة ، يجب أن يتدفق تيار الخَلْق والإبداع في كل شيء ، وبه يتغيّر كل شيء ، نحن في حاجة إلى فكر مُبْدِع في الاقتصاد ، والسياسة ، والتخطيط ، وحسبنا عجزًا ومهانة أننا في هذا كله نعيش على أفكار الآخرين ، وأننا بهذا كله نزداد عجزًا وضعفًا ، وأن أكبر رجالنا هو مَن نصفه بأنه يتابع أحدث تطورات الفِكر العالَمي في بابه ، ونقول : يتابع ، وهذا جيد ولكن بشرط ألا يكون تلميذًا يتلقى ويحفظ ،ولهذا ترانا في السياسة، والاقتصاد ، والآداب ، تَتَوزَّعُنا المدارس العالمية ، وتُديرنا في مداراتها ، حتى كبار ساستنا ، يُقادُونَ إما إلى الشرق ، وإما إلى الغرب ، أما أن تكون لهم قِبلة يتجهون إليها بِهَامَاتِهم ، وينهضون نحوها بأممهم وعشائرهم فذلك ليس واقعًا . لابد أن يتكسر هذا الحاجز البغيض ، وأن تُوجد فينا العقول الحُرَّة في الاقتصاد والسياسة والفكر والأدب ، عقول ليست مكبلة بالذي تحفظ ، وإنما تُبدع ، وتُعطي وتتدفق ، وهذا هو سبيل القوَّة وليس للقوَّة سبيل سواه ، ومَن لم ير الواقع يتحدر ، فليس ذا بصيرة ، ولم تعد الشعوب من السذاجة حتى يخدعها رصف طريق ، وللقوة قياس واحد ، هو أن تعلو هامتنا فوق هامات أعدائنا ، وأن ننتزع حقوقنا من عدونا انتزاعًا وهو مغلوب ، كما انتزع أرضنا ونحن مغلوبون ، وما عدا ذلك فلا يُحسب منه شيء ، ولنمزق أقنعة الخداع ، ولنَحْسوا التُراب في وجوه الكذَابين ، الذين يكتبون عن إنجازات مَن أجاعوا شعوبهم ، والويل لنا إن بقينا في مرقدنا ، ولا بديل لنا من أن يُنفخ في الصور ، وأن نخرج من الأجداث سِراعًا ، وأن نقطع ألسنة الكذَّابين وأكف اللصوص

السارقين ، وأن يعود أمر البلاد إلى الرجال الأحرار حتى نخرج من مستنقع الضياع الذي أوقعنا فيه اللصوص الأغبياء ، وإذا لم نفعل ذلك داستنا أقدام أبناء القِردة ، لأن الشعب الذي يعجز عن أن يفرض إرادته على أرضه لا يستطيع حماية هذه الأرض ، لأنه لا يحمي الأرض إلا شعبٌ عاش حرًّا كريمًا عليها ، أما المواطنون الغُرباء الذين يرون أوطانهم في يد عصابات خاطفة وهم رعاع ضِعاف معزولون عاجزون ، فهؤلاء لا تُمنع بهم حَوزة ولا يعز بهم وطن .

وبعد .. فإنه لا يزال بعض علمائنا يُرَدِّدُون أن علم المعاني هو علم النحو ، وأن كتاب « دلائل الإعجاز » كتاب في النحو وصفحة جديدة فيه ، كتبها عبد القاهر ليُخرج النحو من سيطرة منهج سيبويه ، وأن عبد القاهر قصد إلى هذا قصدًا ، وأن دراسة التراكيب دراسة واحدة هي « نحو » فحسب .

وكان قد سبق إلى هذه المقالة المرحوم إبرهيم مصطفى في كتابه « إحياء النحو » وكان قد كتب هذا الكتاب في وجه العمر ، ولم يُمْهله الأجل ـ رحمه الله ـ ولو عاش وراجع لأدرك ، لأن عبد القاهر هو الذي فصل في المسألة بلسانه ، حين قال في مدخل لطيف لكتاب « دلائل الإعجاز » : « إن فضل كلام على كلام لا يرجع إلى النحو ، لأن النحو قائم كله وعلى التمام وكما ينبغي في كل كلام عربي ، كان هذا الكلام فاضلاً ، أو مفضولاً ، فالنحو الذي في « قِفا نبك » هو هو الذي في « هل غادَرَ الشعراء من متردّم » وكذلك هو الذي في البقرة وآل عمران » ، وأن عبد القاهر إنما كتب « دلائل الإعجاز » ليتعرف على الشيء الذي تجدد بالقرآن ، وقامت به الحُجَّة وظهرت ، وبانت وبهرت ، وهو بالقطع ليس نحوًا ، وإنما هو كما وصف رحمه الله : « دقائق وأسرار ، طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف معان مستقاها العقل ، وخصائص معان ينفرد بها قوم هُدُوا إليها ودُلُّوا عليها ، وكُشِفَ لهم عنها ، ورُفِعَت الحُجُب بينهم وبينها » .

وهذا هو علم نقد الكلام وتمييزه ، وأن الشأو يبعد في ذلك وتمتد الغابة ، ويصعب المرتقى ، ويعز المطلب ، حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز وإلى أن يخرج من طوق البَشر ، وهذا كلام الشيخ رحمه الله ولم أعرف أحدًا من الناس قال إن هذا « نحو » كُتِبَ لمعارضة منهج سيبويه ، إلا إذا كنا قد فقدنا ما به تمييز الأشياء .

ثم إن كتب عبد القاهر في النحو قد نُشِرَت وتداولتها أيدي العلماء ، وهي ماضية على طرائق النُّحاة ، لا تختلف عنها ، إلا بمقدار ما يختلف كتاب عن كتاب في الفن الواحد ، وهي غير « دلائل الإعجاز » .

وقد ذكرتُ هذا لأن القول بأن « علم المعاني » نحو ترتب عليه إلغاء دراسته من أقسام اللُّغة العربية في جامعاتنا ، ولم يُدرس إلا في الأزهر ، لأننا نحن الشيوخ مُنْغَلِقُون ، وليس عندنا استعداد لفهم الجديد الذي يرى فجأة أن علم المعاني نحو مُتَنكِّر ، وكان بعض أبنائنا الذين تخرَّجوا من غير الأزهر يسألني عن المراد بـ « علم المعاني » ، وهكذا غُيِّب علم من أجَلِّ علوم العربية ، بسبب كلمة طائرة قالها المرحوم إبراهيم مصطفى في محاضراته ، ثم سجَّلها في دفتر سمَّاه « إحياء النحو » ، وكان رحمه الله عظيم الفضل ، ولو راجع لرجع كما قلت .

كان عبد القاهر من أشد علمائنا ملابسة لفكر الزمن الذي يعيش فيه ، وكان يُداخل الحياة الفكرية مداخلة اليقظ البصير الناقد ، ويرى ما يلابس حركتها من أخطاء ، ويعطي هذه الأخطاء من فكره ، وجهده ، وكتابه القدر الكبير ، حتى إنك تراه وكأنه كتب كتابه لمناقشة هذه التيَّارات الضعيفة ، كما تراه يفرغ لمحاورة العناصر الحيَّة ، ويُدارسها ، ويُداخلها ، ويستنبط من مبهماتها ، ويستنطق سِرَّها ، وما تزخر به من فكر حيٍّ ، ونريد أن نقتبس هنا قبسة سريعة فيها شيء تحسن الدلالة عليه وذلك من حواره للفكر الفاسد ، وكيف كان يتعرف بدقة على أدواته ، وبَطِبٌّ ببصيرة إلى دائه ، وكانت عناية

عبد القاهر بتنقية الحياة الفِكرية من الأفكار الضارة ، لا تقل عن عنايته بغـرس الأفكار الرصينة .

ويبدو أن تيَّارًا قويًّا في زمن عبد القاهر كان يدعو إلى الاكتفاء بملخصـات المعرفة في علوم العربية ، وأن هذا التيَّار كان ذا أثـر في الحيـاة العقليـة ، وإلا لما احتفل عبد القاهر بمناقشتهم ، وكانوا يقولـون : إنـه يكفـي في البلاغـة أن يقال إنه شبَّه ، أو اسـتعارَ ، أو فصـلَ ، أو وصـلَ ... إلى آخـره ، مـن غـير أن يتغلغلوا في تفاصيل هذه المسائل فيُفَرِّقوا بين ما هو تمثيـل ، ومـا هـو تشـبيه صريح ، وما كان منه مُفْرَدًا ، ومُرَكَّبًا ، وما كان بليغًا ، أو مُرْسَلاً... إلى آخـر ما ينطوي عليه باب التشبيه ، وهكذا في بقية الأبواب التي نرى عبد القاهر كـان حفيًّا بها جدًّا ، وكان يذكر الصور الـتي يجمعهـا البـاب الواحـد ، ويقـول : إذا نظرتَ فيها رأيتها تختلف وتتنوّع ، ويقيم درسه على بيان هذا الاختلاف ، وهذا التنوع ، يعني كان كأن جل عمله مواجهة عملية ، أو « رَدّ فعل » لهذا التيَّار .

ثم إنه كان يفتش في عقول هذه الطوائف ويتغلغل في معارفها ، ومـا تُقبـل عليه من العلوم وما تُعرض عنه ، ثم يقوده النظر إلى أن مـا تقولـه في البلاغـة راجع إلى أنها ساء رأيها في علمين هما : الشعر والنحو ، وأنها ترى أن النحو لا يجوز أن يتسع درسه ، ويزيد على بيان حكم الرفع والنصـب والجـر ، وأن الفاعل مرفوع ، والمفعـول منصـوب ، ومـا يُشبه ذلـك ممـا تُضـبَط بـه اللُّغـة والإعراب ، وما زاد على ذلك فهو تكلـف ، وتعسـف ، أمـا الشـعر فلـيس إلا ملحة ، أو فكـاهـة ، وبكـاء منـزل ، ووصـف طلل ، أو نعت ناقـة أو جمـل ، أو إسراف في مدح ، أو هجاء ، وأنه ليس بشيء تمس الحاجة إليـه في صـلاح دين أو دنيا .

ثم يفتح باب الحديث في النحو والشعر ، ويذكر الاحتمالات التي وجهَّـت هذا الرأي ، ويناقشها واحدًا واحدًا .

والمهم في هذا .. أنه كان في كل حواره يصدر من حقيقة واضحة هي الربط الحيّ بين منظومة العلوم العربية والإسلامية ، وكيف تتداخل ، وتتآزر ، وتتشارب ، وهذا مما لا يجوز أن يغيب عن أي دارس لهذه العلوم ، فضلاً عن أن يكون ناقدًا لها ، هي بمثابة الجسم المتكامل ، وموقع كل علم إنما هو موقع العضو الحي في هذا الكيان الحي ، فالذين يهدمون علم البلاغة مثلاً ويطاردونه حتى في عقول صغار التلاميذ ، جهلوا أن ذلك لو تمّ لهم يؤدي لا محالة إلى « تعتيم » مساحات متسعة في التفسير والحديث ، والفِقه والأصول ، وغياب هذا الفهم عند كثير من أهل زماننا ، هو الذي يدفعهم إلى الجرأة المتهورة في الهجوم ، على ما يُشبه أن يكون ثوابت ، في المعرفة اللُّغوية والبلاغية .

عبد القاهر يربط بين الشِّعروالعقيدة ، ويرى أن الصَادَّ عن الشِّعر صادٌّ عن سبيل الله ، وأن مَن يصرف الناس عن النظر في الشِّعر كمن يصرفهم عن النظر في كتاب الله ، وهذا شيء جيد ويجب أن يقرأه بعض المُتَنَسِّكينَ في زماننا لأنهم يهاجمون الشِّعر ، ويشرح عبد القاهر هذا القول شرحًا مبينًا فيذكر أن الحُجَّة قامت بالقرآن من جهة كونه بالغًا في البراعة مبلغًا تعجز عنه قُوَى البشر ، ولا يمكن أن نعرف هذا إلا إذا عرفنا الشعر ، وميزّناه ، وأحكمنا فهمه ، ونقده ، وعياره ، وعرفنا الأمر الذي به يفضل بعضه بعضًا ، والأمر الذي به يفضل القرآن كل شِعر ، وكل كلام ، وبهذا يكون صرف الناس عن الشِّعر صرفًا لهم عن معرفة وجه الحُجَّة التي قامت بالقرآن .

ثم إن المقصود بالتعبد بالتلاوة ، هو أن يبقى القرن محفوظًا لا يدخله تغيير ، أو تبديل ، حتى تظل الحُجَّة قائمة به كيوم نزل إلى أن تقوم الساعة ، ومَن منع سبيل التعرف على كونه حُجَّة كمَن منع حفظه ، والتعبد بتلاوته ، هكذا يقول عبد القاهر ، وهكذا يربط بين ضروب المعرفة وينتهي بالصَادِّ عن الشعر إلى هذه الحافة المهلكة .

وقد ذكر عبد القاهر أن الشِّعر هو معدن البلاغة ، وعليه المعول فيها ، وأن علم الإعراب كالناسب الذي ينميها إلى أصولها ، ويبين فاضلها من مفضولها ، فوضع علم البلاغة بين الشِّعر والنحو ، هذا الوضع الذي ترى .

وقوله : « إن الشِّعر هو معدن البلاغة » ، يعني أن جوهر العمل البلاغي هو تفقد الأبنية الشِّعرية ، والدراسة التي تجعل أبنية الشعر أساسًا لها ثم تهتدي بكلام العلماء في تصنيفها ، وتوصيفها ، دراسة جليلة . لأنها تمد الدراسة البلاغية بصيغ جديدة فتغزر المادة البلاغية وتتنوَّع ، وتكون أقدر على استيعاب ما في النصوص من عناصر ذات تأثير .

وفي التُراث البلاغي تجربة تُشبه تجربة عبد القاهر ولكنها دونها في القُدرة على تذوق الصيغ والصور والرموز اللُّغوية ، وتختلف عن تجربة عبد القاهر اختلافًا يورثها فضلاً ويُغري بالانتفاع بها ، تلك تجربة « حازم القرطاجني » في كتابه « منهاج البلغاء » .

وإذا كان عبد القاهر قد وضع الأبنية اللُّغوية بين يديه وجعلها طريقًا إلى النظر في الأبنية المعنوية ، فإن حازمًا جعل الأبنية المعنوية بين يديه وأدار درسه عليها ، وكما اهتم عبد القاهر بالفروق الدقيقة في الصِيَغ ، اهتم حازم بالفروق الدقيقة في الجُمل المعنوية فيذكر المعنى الباسط للنفس ، والمعنى القابض لها ، والمعنى الشاجي ، والمعنى الباسط الذي يشوبه شيء من الشجو ، والمعنى القابض الذي يشوبه شيء مما يفرح ... وهكذا .

كما يذكر تسلسل هذه الأبنية المعنوية في شِعر الشاعر ، وكيفية مراوحته بينها ، وأن فلانًا من الشعراء ينتقل من المعنى الباسط للنفس إلى ما يقبضها ، أو أنه ينتقل مما يقبضها إلى ما يبسطها ، أو أنه يبدأ بالمعاني الإقناعية ، ويردفها بالمعاني الشعرية ، أو العكس .... إلى آخر ما نرى من تحليل لخواطر النفوس ، وكيف تتلاحق في البناء الشعري .

والنَّظْم عند حازم نظمان : نظم للُّغة وهو النظم المعروف ، ونظم للمعاني وهو ما سماه «الأسلوب» ، وجعله أظهر في الدلالة على الشاعر ، وأقرب إلى بيان تفرد شِعره وشخصه ، لأن أحوال المعاني وأوصافها وأحوال ارتباطاتها وطرائق تسلسلها مرآة أكثر جلاءً في بيان تقاسيم الشاعر وملامحه وشخصه .

وإذا أردتَ أن تُحكم بيان الفرق بين تُراث الرجلين ـ عبد القاهر وحازم ـ فاجمع ما قاله عبد القاهر في شواهد المتنبي مثلاً ، وما قاله حازم ، وتأمل اتجاه تحليل الرجلين ، تجد عبد القاهر يذكر للمتنبي :

*** وما أنا أسقمتُ جسمي به ***

ليبين لك الفرق بين ما أنا قلت وما قلت ، وأن الأول لا يُقال إلا في فعل قد كان ، وهكذا ... وكذلك ما قاله في قول المتنبي :

يزورُ الأعادي في سماءٍ عَجَاجَةٍ أَسِنَّتُهُ في جانبيهما الكواكب

ليوازن ويشرح الفرق بين المركب والمتعدد من التشبيه ... إلى آخر ما ترى من تحليلات لشعر المتنبي تُبيِّن بلاغة اللِّسان .

أما حازم ، فإنه يذكر المتنبي ليقول عنه : « إنه كان يوطئ صدور الفصول للحِكَمِ التي يوقعها في نهاياتها ، وأن ذلك منزع اختص به ، أو اختص بالإكثار منه» (ص ٣٦٦ – منهاج البلغاء) .

أو ليقول : « كان أبو الطيب يُحسن وضع البيت الإقناعي من الأبيات المخيِّلة ، لأنه كان يصدر الفصول بالأبيات المخيِّلة ، ثم يختمها ببيت إقناعي ، يُعَضِّد به ما قدّم من التخييل ، ويُجِمُّ النفوس لاستقبال الأبيات المخيِّلة في الفصل التالي» (ص ٢٩٣).

وهذا كلام مَن يُحَلِّل بلاغة الشعر ، ويُمَيِّز لُغته ، وشِعره ، ومذهبه ، وهذا هو الباب الذي توقَّف في الدراسة البلاغية وهو كما ترى أهمية ونفعًا ، وإنما يهتدي إليه مَن يَنْتَقِدُ الشِّعر ، وطرائقه ، مع دراسة لكلام العلماء ، أما مَن

يحصر نفسه في دراسة كلام العلماء فلن يقع من بلاغة اللِّسان إلا على ما استنبطه عبد القاهر ، والزمخشرى ، لأنكَ لو راجعتَ قصة الدراسة البلاغية فلن تَجِدَ فيها جهدًا متسعًا وقف مع الشِّعر يستنبط منه أصول البلاغة إلا جهد عبد القاهر والزمخشري في القرآن ، ثم جاء حازم بعدهما .

والمطلوب الآن هو الرجوع إلى الشِّعر ، والكلام الرفيع من النثر ، ودراسته ، وتحليله ، والاستنباط منه ، ليكون ذلك رافدًا يتجدد به العلم ، وتطول به فروعه التي قصرت ، ونرى بين أيدينا مذاهب الشعراء ، عِلْمًا مَدْرُوسًا وليس كلامًا مبهمًا .

وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومَن تبعهم بإحسان .

المعادي الجديدة في الثالث من ذي الحجة ١٤١٠هـ

الموافق : ٢٧ من يونية ١٩٩٠م .

محمد محمد أبوموسى